الاحتلال الاسرائيلي، قادرة على معالجة طغيان النزوع نحو الطريق الاسهل الذي حكم مسيرة المنطقة منذ منتصف القرن العشرين، وأدّى الى انسياق في استسلاب فكري واستنساخ عابث من أشتات الفكر العنصري الاوروبي، انبهاراً بما حققه ذلك الفكر في مجتمعاته من تجسيد مادّي للتطوّر، غافلة عن اختلاف العقيدة الكلية التي تولّد عنها ذلك الفكر وقيمه التي تتضمّن فلسفة شاملة في النظر الى الكون والحياة والمجتمع والانسان والزمان نبعت من التجربة الذاتية والقاعدة التراثية لتلك المجتمعات، بما لا يجدي معه اغتراف لتطبيق قسري على مجتمع ذي تراث حضاري غني قام على أرضية عقيدة تجاوز انتشارها موئلها المجتمعي والاقليمي ممتداً الى آفاق بعيدة في الزمان والمكان والانسان؛ خاصة بعدما عانت المنطقة، بأسرها، من الانقطاع في التطبيق النهضوي عن الذات الحضارية لمجتمعنا نتيجة لهذا النزوع، وما استشرى معه من تغريب، وغربة، وانقياد لمراكز حضارية بعيدة ومعادية تاريخياً، ومن اضطراب شديد في القِيَم والأهداف والافكار الوطنية والمجتمعية.

ثالثاً: ليس هناك أي مبرر تاريخي، أو واقعي، لتخوف من نشوء انقسام مجتمعي، أو تناقض، أو تنافس، أو صراع على أرضية طائفية في الحالة الفلسطينية. وحتى لو قامت حركة مقاومة فلسطينية مسيحية، فليس قيامها بالتطوّر السلبي. ولا حاجة الى التذكير بأن محاولة من هذا القبيل قد جرت قبل عشر سنوات، فلاقت ترحيب الاوساط القيادية الرسمية الفلسطينية على قاعدة «دع ألف زهرة تتفتح». ان التخوّف ليس من قيام حركة مقاومة فلسطينية مسيحية رداً على حركات المقاومة الفلسطينية الاسلامية، وانما من استمرار سياسة التهجير الاسرائيلية التي أدّت الى تقليص عدد المسيحيين باستمرار من بيت لحم والناصرة وكل أنحاء فلسطين. لقد انخفضت نسبة المسيحيين في بيت لحم، مثلاً، من حوالى تسعين في المئة من السكان الى أقل من عشرين في المئة. وانخفض عددهم في القدس من ٤٥ ألف مسيحي، في العام ١٩٤٠، الى أقل من عشرة آلاف حالياً، أي ان الخوف الحقيقي هو انه «اذا استمرت هذه الهجرة، فلن يبقى هناك مسيحيون في أرض المسيح»[١١]. ان الانخراط في مقاومة الاحتلال الصهيوني، وان تمّ في اطار حركة مقاومة مسيحية مستقلة، هو التعبير الارقى عن رفض الخضوع لهذا التهجير، وللاحتلال أصلاً.

رابعاً: ان التحدي الذي يواجه الشعب الفلسطيني، في اطار ما يواجه أمّته بأسرها عموماً، هو تسريع الفعل الخلّاق المبدع والاصيل للتغيير الذي يقود الى تحقيق التحرير والعودة؛ وهذا يتطلب، من بين الكثير ممّا يتطلب، استيعاب دروس التجربة بوعي، وباستمرار. واذا كان أي منصف لا يستطيع انكار كون المشروع الاستيطاني الصهيوني بأصوله الاوروبية، بالتبنّي الاميركي الأعمى له، يمثّل امتداداً وتجديداً للظاهرة الاستعمارية الاوروبية في سياق صراع حضاري تعود جذوره الى الغزوات الاوروبية الصليبية للمنطقة، والرفض الاوروبي ـ الاميركي لتجديد الدور الحضاري لهذه المنطقة، فان خوض هذا الصراع، فلسطينياً وعربياً واسلامياً، لا يحتمل التفافاً عن هذه الحقيقة، ولا عن جوهر ذاتنا الحضارية المكوّنة لشخصيتنا.

ان صراعاً بمستوى، وشمول، وشراسة، ما نخوض يستدعي استيعاباً واعياً لحقيقة ان العقيدة هي العامل المركّب للحضارة. ولكي تأخذ العقيدة دورها ومداها في المركز الفلسطيني للطرف المستهدف بالغزو الصهيوني، لا مجال لشك في ان الدائرة الانسانية للاسلام، فلسفة وحضارة، تتسع لكل الاجتهادات، والمنطلقات التاريخية، والقومية والوطنية السليمة والجادّة. ان التخوّف من انتشار مثل هذا الفهم هو الذي جعل البروفسور موشي شارون يعتبر المساجد الخطر الحقيقي على اسرائيل، وهو ـ ربما ـ ما جعل يغئال الون يقرأ المستقبل، حين قال، في ١٩٧٩/٧/٣٠، في اثناء حديث